مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 08 عدد: 04 السنة: 2019
ص: 113 - 128 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الحداثة في الكتابة النّسائية الجزائرية بين خصوصية الكتابة وأفق التفاعل مع الآخر

Modernity in Algerian Women's Writing Between the Specificity of Writing and the Horizon of Interaction With the Other

العيد مليكي *

Laid Maliki

جامعة وهران 1(أحمد بن بلة) / الجزائر

University of Oran1/ Algeria

تاريخ الإرسال:2018/11/30	تاريخ القبول: 2019/05/27	تاريخ النشر : 2019/09/25

ملخص البحث

تولدت الكتابة النسائية الجزائرية من رحم ما عانته المرأة الجزائرية من تحديات، إن على مستوى الواقع الاجتماعي أو الخصوصية الذاتية، حركت مشاعر (المرأة) المبدعة لتعبر عن نفسها بصوت وعيها فتستريح من صدامات الفردية العازلة وتتخلص من قلق التفاعل مع الآخر، ولتفلت من مكبوتات نفسها وتسكن شهواتها ونزواتها ، ذلك أن الكتابة هي الفعل المطابق لما يحصل من الصراعات داخل الأنا، الذي يبحث عن حلول لما تتساءل عنه الحقيقة من جواهر مشتركة في الحياة عند القبول بالآخر.

الكلمات المفتاح : نسائية .كتابة . آخر . حداثة . جزائرية

Summary :

Algerian women's writing was born out of the womb of Algerian women's suffering and challenges. On the level of social reality or personal self-interest, it's Moved the creative feelings of woman to express herself and her consciousness by her own voice , so that she rests from isolated individual clashes, and gets rid of Interaction anxiety with others, and escapes the penned of herself and inhabits her desires and whims. It is that writing is the act that corresponds to the on going conflicts within the ego, which seek solutions to what the truth requires about the common essences in the life when accepting the other.

Keywords: : feminism ; Modernity; women's writing ; Algerian; the other.

* : العيد مليكي. malikilaid2@gmail.com

أولاً : المرأة في المجتمع الجزائري والمؤشرات الصدامية مع الحداثة.

كبداية لا بد للدارس أن يبحث عن تجليات التوازن الموضوعي وتمظهرات التجاوز السردي النسائي الذي تشكله العلاقات الخارجية، ذات الأسباب والنتائج بما تمارسه من تفعيل للوعي لدى المبدع والتعقل المطلوب ، والتي تسهم في بناء النص وتكوين مدلولاته من خلال تأثيراتها، لذلك تتوزع السردية النسائية الجزائرية في مواضيعها إلى قسمين هما:

01/ الوطن : ذلك أن جل الروايات النسائية في الجزائر غلب عليها موضوع الوطنية وحب الوطن، فاهتمت بقضايا الوطن وهمومه خاصة، وكل ما جاء فيها من أحداث بطولية تصف الأزمة التي مرت بها البلاد خلال العشرية السوداء (التسعينيات)، لتستشعر بوعيها مشاعر الآخرين وتصور لنا تطلعات هذا الشعب المقهور، وحاجته إلى السلم والحرية والأمن في وطنه الواحد، ومن أمثلة ذلك : قصص (زهور ونيسي) المفعمة بالروح الوطنية والدّعوة للتّحرر.

02/ المرأة :و هو موضوع الخصوصية في السرد النسائي الجزائري، يحكي قصة المرأة في علاقتها بمجتمعها، وما تصبو إليه من طموح للحرية والانعتاق من الأفكار الناقصة اتجاهها من قبل الآخر، كما أن المرأة في الكثير من كتاباتها تظهر تمردها على الواقع الاجتماعي المألوف التقليدي، تجدها تعبر عن شعورها الأنثوي، تلامس كلماتها رغبتها الجنسية، تستأنس بشهواتها الدائمة التي لا تنقطع ومن أمثلة هذا النوع الأنثوي كتابات الروائية (فضلة الفاروق) التي سلطت قلمها للدفاع عن حقوق المرأة والحديث عن رغباتها وتطلعاتها الأنثوية.

لذلك فإني أسعى من خلال هذه الورقة البحثية لإبراز واقع المرأة الجزائرية في مجتمعها والإشارة إلى الصّدامات الحداثية التي أثرت في العلاقات الأسرية، والإشارة إلى خصوصية الكتابة النسوية / الأنثوية الجزائرية، ذلك الخطاب الملامس لأهم القضايا الأنثوية (الجنس، اللذة ، الشهوة، الحرية، الرجل)، مع محاولة إظهار أفق التفاعل مع الآخر الذي يعدّ طرفاً مكمّلاً لوجودها الحقيقي في الحياة ودورها البيولوجي في خدمة الإنسانية.

في زمن تغيرت فيه المعطيات الاجتماعية والحياتية بات من الضروري تغيير النظرة حول المرآة / الطرف الثاني في الحياة، وفي عصر تتشاكل فيه المفاهيم وتختلف حوله الرؤى والقضايا الإنسانية ينتقل السرد من واقع افتراضي في الكتابة والتخييل إلى نظرة حتمية تجانسية تبحث عن مشاركة الآخر في التحديات والوقائع الاجتماعية، هكذا تحولت طبيعة السرد النسائي الجزائري

الذي كان في زمن ما منغلق يصافح الأيادي ويعانق كل لطيف، لذلك فالحديث عن المرأة وكتاباتها اليوم هو بحاجة إلى إعادة اعتبار في التحليل الموضوعي المنهجي للكتابات، وقد يصح اعتبار حالة المرأة هنا، مؤشر تحليلي دال على حركية العلاقات الاجتماعية داخل بنية المجتمعات المعاصرة، وأن طرح مسألة الكتابة النسائية الجزائرية هو طرح لدينامية جدلية بين إبداعها ومجتمعها بتعيين دور المرأة ومناقشة المستجدات الحاصلة على هذا الدور وعلى إنسان هذا الدور من خلال دينامية وجدلية الواقع وتناقضاته، وفي مقاربتنا لهذه المسألة سوف نتوقف عند مستويات مترابطة ومتداخلة في تفاعل حيوي زمني ويومي.

إن اصطدام المجتمع الجزائري بالحداثة كأفكار متحولة جديدة، وكنسق عقلاني وصل إلينا عبر الاتصالات والمواصلات حالياً، وهو ما طرح أمامنا صورة ملحة تستدعينا، وتضعنا أمام تحديات مصيرية، تمسّ كل مستويات المعاش عندنا جماعياً وفردياً، في العمق وفي الشكل.

وقد عرف المجتمع الجزائري العديد من التوترات بين ثنائيات عديدة مترادفات لمعنى واحد: التّقليد والتّجديد، المحافظة والتّحديث، الجمود والتّحرر، الرّجعية والتقدمية، الأنا والآخر، المحلي والعالمي، القديم والجديد، ومنها الأصالة والحداثة.

من خلال هذا سنتناول قضية المرأة في المجتمع الجزائري وعلاقتها بالهوية الجزائرية بين قيم الأصالة والحداثة في ظل التغيرات ثقافية للمجتمع الجزائري، ولتفسير هذا كله نطرح التساؤلات التالية :

- هل ما جاءت به الحداثة من قيم ثقافية تجعل للمرأة وجها آخر غير الذي كانت تعرف به سابقاً وما علاقتها بطبيعة الهوية الجزائرية؟
- وهل التمسك بالقيم الأصيلة يعتبر ابتعاداً ورفض للحداثة؟
- وهل يمكن الحديث عن ثوابت ومتغيرات في القيم عند المرأة في ظل التغيرات السّوسيوثقافية في المجتمع الجزائري؟.

انتقل المجتمع الجزائري من حالة الانبطاح في زمن وجود القيود المفروضة عليه من قبل المستعمر، إلى حالة البحث عن الذات في زمن التحرر، لكن وحقيقة أنه لا يحصل هذا إلا إذا أدرك المثقف دوره في إثبات وجوده في الساحة الثقافية المتأثرة بمخلفات المسيطر على وعي المجتمع، لذلك فإن المرأة الجزائرية المثقفة هي أمام تحدي الواقع الممزوج بالثقافتين، ثقافة الأصل

المقهورة من قبل المستعمر، وثقافة المستعمر المسيطرة، فمن الحقائق الأساسية التي تجابه الإنسان في عصرنا أن النّموذج الحضاري الغربي أصبح يشغل مكانا مركزيا في وجدان معظم المفكرين والشعوب، وليس من المستغرب أن يحقق نموذج حضاري له مقدرات تعبوية وتنظيمية مرتفعة انتصارات باهرة على المستويين المعنوي والمادي[1].

أولاً: الحداثة تمثل أولوية الذات وانتصارها [2]، والتي يرى المفكر (محمد أركون) أنها ليست حدثا تاريخيا معينا أو محددا بدايته بل هي نتيجة لتاريخ طويل مليء بالأحداث التي أسهم كل منها بقسط معين في تشكيلها[3]، فالتحول الجذري الذي ناصره عصر الأنوار يمثل الفسحة التي طالما انتظرها الإنسان الغربي لتحقيق نصرته على الطبيعة وقد اقتنع فلاسفة الغرب أن اللاهوت هو بحق عقبة في سبيل التحرر والانطلاق والإبداع، فظهرت الضرورة لتمجيد قدرة العقل على تجاوز التقاليد الكهنوتية[4].

فعند اصطدامنا بهذه الحداثة ولجنا مرحلة جديدة، من هنا دخلنا في جدل حتمي، ربما عنفي مع هذه الحركة التاريخية الواقعة على حدودنا، داخل علاقاتنا، وداخل بيوتنا، وبالتالي فإنه يعني المرأة في تحركها وفي رؤيتها، وهذه الحركة تقع في زمن تاريخي عربي من جهة، وفي منظومة علاقات مبنية، يتراءى لنا، وفي انطباع أول أنها ساكنة متجمدة وثابتة، ولكن المجتمع، أي مجتمع، ليس ساكنا في حركيته التي تطال الكلي والجزئي، الواقعي والمفاهيمي، حتى ولو كان هذا الجدل يقع في إطار ما اصطلح على تسميته بالتخلف والتبعية، مما أدى إلى إطلاق تسمية أزمة المجتمع العربي الحالية ب (المعضل)[5]:

والمعضل إننا نحس بالضعف، استسلاما وتشاؤما، أمام تغيرات سريعة الوقع، وآليات عنيفة تتساقط علينا من الخارج، وكلما قلت توقعاتنا للتغيرات السريعة وضعفت استجابتنا الفاعلة في مواجهة آليات التعامل مع العالم الخارجي، كلما مارس الإنسان العربي الهروب بأشكاله كافة، بينما نحتاج إلى المواجهة الجماعية، الهروب هو آلية دفاعية نفسانية، لا تنفي الحركة الواقعية النابضة، حركة النحن، حركة الجماعات والطبقات والمجتمعات، حركة إنتاجنا الحضاري، حركة البنى التي تتحرك داخلها كمساهمين نشطين في هذا الواقع، ومؤشرات صدامنا مع الحداثة ليست هي بذاتها مؤشرات تعاطي الإنسان الغربي معها، وذلك تبعا لجدل وتفاعل الحداثة مع الواقع البنيوي السياسي والاقتصادي والاجتماعي العربي.

هذا التحول كله هو الذي حدد طبيعة العلاقات الاجتماعية، وتقسيم العمل هو المفصل في مسألة تشكل الطبقات وقيام العلاقة التناقضية بين المرأة والرجل حيث راكم الرجل خبرة العمل والحياة العامة، وراكمت المرأة الحياة عبر التكاثر والتناسل، ولكن مع التحولات الحداثية خرجت المرأة للعمل والعلم وانهدام الجدار المباشر الفاصل بين عالمي المرأة والرجل، واكتسبت المرأة من خلال ممارستها لوجودها خارج جدران المنزل وعيا بذاتها وبقدراتها، ومع الفلسفات الحديثة التي طرحت مسألة الفرد والذات، والمستجدات العلمية أظهرت أن البيولوجيا هي اختلاف وليست تمايز وتفضل، خصوصا مع تقلص قيمة القوة العضلية بفضل انتشار الآلة، ومع الثورات الكبرى طرحت إيديولوجيا التقدم والمساواة بين الأجناس، وكان للمرأة في فضاء وأرض القرن العشرين حضورا اعتراضياً كثيفا، وتجلى اعتراضها ومطالبتها بحريتها وبمساواتها عبر انخراطها في نقابات وأحزاب وحركات، أكثرها تطرفا الحركة النّسوية العالمية، التي وجدت امتدادات لها في العالم العربي، وكان للتحليل النفسي الأثر الكبير في إخراج الكلام عن الجنس والجسد والمتعة واللذة والعلن، واعتبار ذلك الأمر من أهم مقومات الحداثة[6].

الجزائر كغيرها من دول العالم لم تكن بعيدة عن كل مجريات الأحداث والتغيرات الحادثة على مستويات مختلفة، هذه التغيرات جعلت من الجزائر تمرُ بتحولات عديدة على مختلف الأبنية سواء السياسية والاقتصادية والأسرية... هذه التحولات جاءت للوصول بالمجتمع الجزائري إلى مصاف الدول السائرة في طريق النمو، فتوفير حياة أفضل للمواطن واللحاق بركب المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا والوصول بالمجتمع إلى مصاف المجتمعات الحديثة، وهي كسائر الدول الأخرى لها خصوصيتها الثقافية التي تميزها عن غيرها وتجعل لمجتمعها له هوية خاصة به، تتحدد أساسا من وجودنا التاريخي والجغرافي هذا الوجود الذي يحدد خصوصيتنا وانتماءنا[7].

غير أن هذا الوجود بات مهددا في الوقت الذي أصبحت فيه المجتمعات الغربية تروج لثقافاتها وأنماطها السلوكية المتناقضة مع شخصيتنا العربية الإسلامية عبر وسائل إعلامية مختلفة، فأصبح هاجس الخصوصية في الثقافية والإبداع بين أفراد الأسرة الواحدة المرأة/ الرجل هو نفسه هاجس الأصالة والمعاصرة معا ومحاولة تنميط سلوكيات البشر وثقافتهم في المجتمعات كافة وإخضاعها لقيم وأنماط سلوك سائدة في ثقافات أخرى لمجتمعات حديثة، الأمر الذي يحمل

إمكانية تفجير أزمة الإبداع والثقافية التي أصبحت من المسائل الرئيسية التي تواجه المجتمعات الإنسانية على المستوى العالمي.

إن مفهوم الإبداع والكتابة عند المرأة الحداثية هو الخروج من حالة العدم إلى طور الوعي بالذات، وتطرح في مقابل ذلك فكرة الوعي بوجود آخر مختلف، وبالتالي تدفع إلى النظر في المعنى الكينوني للإنسان وفي مراكز التقاء الجماعة أو تنافرها، هذا إلى جانب ما تحتمله لفظة «التحديث أو الحداثة» من محمولات عقلية انتقائية أو ترجيحية أو نمطية فاعلة في الإبداع.

وإزاء هذا الوضع فان المرأة العربية تواجه تحديات جديدة، أكثر خطورة وصعوبة. تبدو السنوات التي مرّت سهلة وبسيطة، تميزت ببعض الأصالة والقناعة بكل ما هو ممكن وكائن، أمام ما ينتظرها في هذه الحقبة الخطيرة التطورات المتلاحقة، والتغيرات السريعة في عالمنا المعاصر الذي أصبح يطال كل شيء تقريباً في حياتنا. إنها فترة امتحان للوجود العربي وسيكون للمرأة العربية دور أساسي في تحديد الشكل المستقبلي لهذا الوجود ،كونها أصبحت حلقة أساسية في حلق التحديث والنهوض والتجاوز.

إن ما نعيشه اليوم من تطورات حالياً في مجتمعنا، كل القيم هي في حالة متذبذبة فما ترفضه المرأة هو وضيعة القاصر؛ أي الدور التقليدي السلبي اجتماعيا، أم زوجة، تابعة لسلطة رجل مالك للأولاد والأرزاق، إذا ترفض المرأة ما تربت عليه، فأسطورة التفوق الذكوري (الطبيعي) نقيض النقص (الطبيعي) الأنثوي تهتز، وعلوم الطبيعة ساهمت بدورها في اهتزاز أنظمة الشرح وأوليات السيطرة، وطرحت بتعابير مختلفة إشكالية مساواة المرأة والرجل، لأنها ساهمت في مساعدة المرأة على مباشرة الخروج من استلابها أمام الطبيعة، طبيعتها هي، وكان لها أيضا نتيجة فصل ميادين كانت مختلطة: الجنس، التكاثر، الأمومة، التربية، وكلما فصلنا الميادين عن بعضها البعض، يتم التفاعل مع كل منها على حده، فهذا معناه إدخال وتكثير الخيارات الممكنة، إذا تخلق حرية، وتفرض مقولة المساواة نفسها، على الأقل نظرياً[8].

إن وعي المرأة لهويتها وإرادتها بالاستقلالية، وبحثها عن شخصية منعتقة من الشعارات والنماذج التقليدية دفعها للتساؤل حول معنى حياتها كامرأة حول معنى التزامها العاطفي، لأن المرأة الجديدة ليست المعجبة بلا حدود برفقتها، وبالتالي لا تجد مبرراً لخضوعها له، المرأة اليوم تسعى لإعادة النظر في العلاقة التراتبية في الأسرة (السلطة للأب والحنان للأم) هذا التوزيع يؤدي إلى

علاقات تراتبية (الخضوع، التنظيم)، أي علاقات اجتماعية عمودية، وعلاقات شعورية، علاقات حب على مستوى أفقي، هذا الانقسام الظاهر يخفي وراءه علاقات جوانبية أكثر تعقيداً حيث يتقاطع الحب والسلطة وحيث الخضوع يعاش بحنان، وحيث الانفعالات تعاش كعلاقات قوة بمعنى أحب = أو تلقى السيطرة، وهذه السمات النموذجية المميزة لتنظيم البنية الفاشية، وينشأ عن كل هذا مفاهيم الرجولة والأنوثة[9]

من هذا التحليل للأسرة والمرأة في مجتمعنا نستطيع الإجابة بل وفهم مستوى التعلق العاطفي الذي مازال يلجم النساء، فكل التحرر البيولوجي والإيديولوجي وشعارات التمرد، نراها تلجم فجأة أمام لحظة حب، ولو رجعنا إلى كتابات المرأة نرى أننا أمام خطين متوازيين:

. خط أول : هو إعلان الذات المتمردة والحديث عن الإحباط.

. خط ثان: الرضوخ والخضوع في الحب، كأن هذا المستوى العاطفي لم ينضج ومازال أسرياً، ولا يمكن إلا أن يكون كذلك، لأن المرأة الشاعرة أو الكاتبة كغيرها من النساء قد تربت في هذه الدائرة العاطفية الأسرية التي وصفناها.

إذاً يمكن وصف مستويات التّحرر عند المرأة على الشكل التالي:

. انعتاق من الاستلاب البيولوجي.

. مسألة نسبية للمستوى الإيديولوجي حسب درجة الوعي الطبقي.

. رضوخ وخضوع تام للمستوى العاطفي[10].

لذلك فإن إبداع المرأة الجزائرية لا يخرج على الانكفاء على الذات الأنثوية وهمومها، تسرد فيه خصوصياتها كأنثى مقهورة في مجتمع قاهر، فهناك (بعض من النقد الذي يمارسه الرجل يحاول أن يسقط صفة الإبداع عن أدب المرأة هناك شيء لا واع في الرجل يقاوم الاعتراف بقدرة ما يمكن أن تحوزه المرأة إلا القدرة على الخيانة والكذب، هي إذن لا تقدر على الكتابة أو الإبداع، هي تصنع وتلد فقط أما فعل الإبداع والكتابة فهو المجال الخصوصي للرجل)[11] ، ورغم ذلك كله فإن المرأة لا تزال تكافح من أجل إثبات وجودها كمبدع يمكنها تغيير التشكيلة الاجتماعية العربية ونقد العقل القاصر الذي يعتز بنفسه ويقصي الآخر رغم الدّور المركزي التّواصلي الاجتماعي والأسري الذي تجسده المرأة المثقفة / المعاصرة.

المرأة المتثقفة / الواعية تسعى لتؤدي دورها في المجتمع دون الخروج عن التأصيل الشرعي، دون الهروب من الهوية، لأن التفاعل مع متحولات العصر تقتضي منا عدم الانحراف عن الأصول والثوابت، ذلك أن الفرع لا يمكن أن يزيح الأصل، والمرأة أصل ضروري في مجتمعنا، كتاباتها تعبر عن وعينا بها وبمكانتها بيننا.

ثانيا: آفاق التفاعل مع الآخر.

إن السّرد عند المرأة في أغلبه يعالج عالمها الخاص وأنماط وعيها الخاصة بها لكنها تلفت الانتباه ،فالكتابة أولا هي الإشارة إلى الحضور والهوية، فالمرء يكتب ليلفت إليه الانتباه تماماً كالطفل الذي يصرخ حين يكون في حاجة إلى أمر ما، ولذلك كانت الكتابة رسالة من الذات إلى الآخر، وبطبيعة الحال قد تكون هذه الرسالة عادية تقليدية مألوفة، فلا يستجيب لها الآخر، وقد تكون رسالة ذات محتوى جديد تستدعي انتباهه، فيلتفت إليها ويحاول تفكيكها ومعرفة ماهيتها شكلاً ومضموناً .

ومن هذا المطلق نصل إلى أن مفهوم الكتابة متصل بالإبداع، وهو بالضرورة درجات فليست الكتابة واحدة، وإن أطلقنا عليها المقولة المعروف " أنا اكتب فأنا موجود" فثمة نقّاد معاصرون ومنهم (بارث وكوهين وجينيت)، وضعوا حدودا ودرجات لكل كتابة، بدءاً من درجة الصفر في اللغة العادية إلى درجات أعلى منها في الأدب حسب كل كتابة على حدة، سواء أكان النص موضوع الدراسة شعرا أو رواية أو ينتمي إلى الأجناس الأدبية[12].

وإذا كانت الكتابة تستهدف الخلود بالقراءة في أزمنة غير محدودة فإن المرأة حريصة هي الأخرى على أن تخوض هذه التجربة لتكون ندا للرجل في قضية الخلود بعد أن حرمت من ذلك طويلا في العصور البطريركية الذكورية التي حدّدت لها وظيفتها في الحياة، ومنعتها من الخروج من دائرة العتمة إلى دائرة النور، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن للكتابة عوامل وصفات لابد من توافرها لتستحق شرف هذه التسمية، ومنها أن تحمل في ثناياها أفكارا وأساليب جديدة، سواء أكان الكاتب رجلا أو امرأة، ولا يحدّد الجنس البيولوجي بالضرورة موضوعات الكتابة وأساليبها ولا دراجات الإبداع فيها، فقد كانت هذه التحديات ذكورية خالصة في زمن كانت الكتابة فيه مقتصرة على جنس من دون آخر، ثم إننا نعيش اليوم في زمن نؤمن فيه بمقولة (بارث) " " موت المؤلف" وقيام المجتمع النصي فعلا وبديلاً من المؤلف الفرد العبقري الملهم، ولا بد من الإشارة أيضاً

إلى أن هذا المجتمع النصي متصل برافد من روافده بالواقع الذي يمّد المخيلة النصية بالمواد الأولية الضرورية لصناعة الكتابة[13].

ذلك أن الواقع هو الذي يحدد نوعية الكتابة ودرجة وعيها، وأن الكتابة لا يحددها جنس أو نوع، أنها تتطلب وعيا بالكائن وتحركا لصناعة الممكن المتفاعل الموازي تغييرا وتجاوزا للكائن الثابت.

إن المرأة كثيراً ما تتخذ الكتابة وسيلة لحل تناقضاتها مع الرجل أو الأم أو المجتمع الذكوري بشكل عام، هي لا تكتب من أجل السيطرة على الرجل كما يفعل هو بواسطة القانون والأدب، لأنها حين تريد أن تسيطر عليه تستعمل كتابة من نوع آخر لا يفقه الرجل تفكيك رموزه بسهولة، فهي ترمي من الكتابة والكلام إلى تفجير كل شروخ جسدها وتموّجاته، ومع ذلك تبقى كتاباتها بعيدة كل البعد عن رغبتها العارمة في الإحاطة باللغة الضرورية لصياغة رغبتها في الكتابة لمحاولة الرد على القهر الوجودي العام الذي تمارسه على العلاقات الاجتماعية والأخلاقية والنفسية الذكورية[14].

إن المرأة الجزائرية رغم مشاركتها الفعلية في الميادين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وليس هناك من ينكر دورها وحقوقها خاصة في الوقت الراهن، لكنها لازالت تعاني في الميادين الثقافية، وهو ما يبرز وجود فارق بين ما يشرع، وبين ما يطبق في الواقع، ولعل سبب الكاتبات يتمثل في حواجز التقاليد والعادات، حيث أن كثيرا من الأسماء ما تزال تنشر تحت أسماء مستعارة أو تشير إلى أسمائها برموز تترك الدارس لا يعتمد عليها لكون الأسماء الحقيقية مجهولة، وعن مثل هذه المعاناة نقرأ ما تقوله الشابة (مريم يونس) " كانت دروبي في هذه المدينة الجميلة . جيجل . كلها أشواك وعقبات، كانت عذابا واضطهادا، خاصة عندما بدأت الكتابة، فقد غصت في دوامة من القيل والقال، لكنني لم استسلم قاومت في هدوء وما زلت إلى أن أنتصر لوجودي بين الأدبيات الجزائريات إن شاء الله "[15].

إن الكتابات النسائية المبكرة في الجزائر، كانت قد لامست في معالجاتها السردية، صورة المرأة المشدودة إلى الواقع القمعي المتخلف، الذي تضيع فيه كل حقوقها، وتحبط كل إمكاناتها الإبداعية، وتعاق محاولاتها الرامية إلى المساهمة في دورة الحياة العملية. لكن تلك المعالجات جاءت في المرحلة الأولى لوعي المرأة بقضيتها مهادنة هينة، همها أن تصف هواجس بطلات القصص

النفسية، وتجسد معاناتهن المريرة، بحس تحليلي أنثوي مرهف، داخل فضاءات مغلقة قاتمة، دون أن تلمس المشكل بصورة متمردة ملؤها التحدي والسير بالتمرد إلى آخر أشواطه. فقد تم فيها التركيز على التجسيد التخييلي لوضعية المرأة وسكونيتها، في رضوخ واستسلام للواقع المتخلف بعاداته وتقاليده وأعرافه البالية، مع بعض التململ المحتشم وغير الجذري. فما كان في إمكان المبدعات أن يتجاوزن في تلك المرحلة الخطوط الحمراء أكثر من اللازم، خصوصاً وأنهن كن جزءاً من القضية، وعشباً نابتا في صميم الواقع الحاضن للمعطيات السلبية، المغذية للممارسات الظالمة في حق المرأة.

لقد ظهر السّرد النّسائي الجزائري في ظل الأزمة الوطنية، ولم يتبلور حضورها بفاعلية إلا في التسعينات وبالتحديد في نهاية التسعينات، حيث بدأت تمر محاولات لروائيات جدد، لم تركز أغلبية النصوص على قضايا المرأة مثلما تناولت الوطن باعتبار الروائيات كن شاهدات على فترة دموية حرجة، الأمر الثاني أن المجتمع الجزائري لا يزال محافظاً في أغلبه فلا تجرؤ المرأة على التطرق لمواضيع حسّاسة تعّد من الطابوهات، وقد أصبحت هذه الأعمال الروائية تحتل مكانة لا يستهان بها داخل المشهد الثقافي الجزائري والعربي عامة كما لا تزال صاحباتها يثبتن حضورهن وبفعالية في الخطاب الروائي، ولم تعد المرأة خلالها موضوعا منظورا إليه، بل خرجت من دائرة المغلق والصمت والاستهلاك، إلى الخارج والفعال والمنتج، بفعل خطابها الروائي الذي حقق للمرأة المبدعة حضورها ذاتا حقيقية وفاعلة[16].

إن أغلب الروايات النسائية الجزائرية الحديثة تدور حول موضوعين اثنين (الوطن / المرأة)، فالموضوع الأول جسدت فيه المرأة انفتاحها على الآخر وهي تبرز بذلك قمة اهتمامها بالوطنية والدفاع عن الهوية الوطنية، لأن هذه الكتابات تولدت من رحم المحنة الوطنية هي كتابات كانت شهادة على العشرية السوداء، ولا شك أن صاحباتها كن يعانين الويلات ويشعر بما يعيشه المجتمع الجزائري المقهور، ومن بين هذه الأسماء (ياسمينة صالح) في روايتها "وطن وزجاج"، و"لخضر" و(سميرة هوارة) في " الشمس في علبة" ، و(زهرة ديك) في " بين فكي وطن" و" في الجنة لا أحد"و(سمير قبلي) في " بعد أن صمت الرصاص" و(شهرزاد زاغر) في" بيت من جماجم" و(فضيلة الفاروق) في "تاء الخجل"[17].

فهذه الروايات في أغلبها روايات لم تخرج عن دائرة تصوير ووصف العنف الذي عاشته الجزائر خلال العشرية السوداء حيث اتخذتها مادة حكائية تأججت النصوص الروائية بها، وغاصت في أحداثها بشخصيات عايشت الأحداث بكل حيثياتها وبعنف المرحلة ودمويتها.

وقبلهن ننبه إلى الكاتبة (زهور ونيسي) التي أشركت الشعب جميعا في الجهاد المقدّس من خلال قصتها، فعائلة الشيخ عمر في (زغرودة الملايين) نجد مشاركة أفراد الأسرة فيها الفتيات والنساء، وفي (لماذا لا تخاف أمي) ينطلق الطفل الذي يحمل الرّاية ويستشهد، وفي مجموعتها القصصية الثانية (على الشاطئ الآخر) يسجل حضور المرأة كمناضلة، مثلما هو حال (زهية) في قصة (المرأة تلد البنادق) وقصة (وراء القضبان) تتجلى صورة المرأة كمسؤولة في مكتبة مدرسية تتعامل مع التلميذات، ومنهن (نجية) بنت الشهيد، هكذا فإن قصص الكفاح والثورة عند (زهور ونيسي) تحمل بعدا نضالياً وذلك لأن النضال كان فوق كل شيء في ذلك الزمن[18].

إلى جانب هذه المرحلة الدموية في التاريخ الجزائري السرديات النسائية التي تحكي عن الوطن، كانت روايات (أحلام مستغانمي)إضافة إلى رواية "مفترق العصور"(لعبير شهرزاد) روايات تحفر في أسئلة الوطن والتاريخ وتلامس قضايا وإشكالات لا تزال تصاغ بأسئلة المسكوت عنه، والمثار للجدل والطابوهات، عبر كشف زيف بعض الشعارات وتعرية المقدسات واستنطاقها للتطرق لانحرافات بعض الأسماء التاريخية الثورية والسياسية، إنها تستجوب الماضي وتدنيه، وتستنطق الحاضر برؤية نقدية عبر شخصيات ورقية تتكلم بحرية وتحلل أحداثا وتعرض مواقف بكل موضوعية بعيدا عن الذاتية، وذلك من منطلق أن الرواية أصبحت خطابا قادراً على احتواء الأسئلة المحرجة والقلقة وترفض الخطابات السياسية الزائفة.

ثالثا:الخصوصية في الكتابة النسائية الجزائرية :

وأما عن الخصوصية في الكتابة السّردية لدى المرأة فإننا نلمس محاولة ملامسة انشغال المرأة ومعاناتها داخل المجتمع ووعيها بذلك في قوالب جاهزة ومعدة مسبقاً، وذلك بغية تجاوز واقعها والتخلص من همومها للتوجه إلى ما وراء الذات، حتى لا تبقى منغلقة في حلقة مفرغة من الحضور الفعلي،فقد تكوّن لدى المرأة المعاصرة وعي حاد، مستحصل من تجاربها المريرة مع الواقع المعيش، بكون قدرها أن تحارب وحدها من أجل قضيتها، عملا بمبدأ المثل القائل (ما حك

جلدك إلا ظفرك). فأدركت أن الكل يقف ضدها، خاصة على مستوى القوانين المجحفة والإعلام المغرض والعادات والتقاليد البالية.

وربما ساهم وعيها بسلب المجتمع كل الأسلحة من بين يديها، على الصورة المأساوية المعروفة، في اضطرار بعض النساء العربيات المتعلمات والموهوبات، إلى اللجوء فيما التجأن إليه من جبهات المواجهة، نحو عالم الكتابة باعتباره ممارسة فردية متاحة ضد قوى قمعها وتهميشها وتكريس صورتها النمطية البائسة، رغم ما يمكن أن تواجهه هنا أيضا من صعوبات، بل وما يمكن أن تؤديه من ضريبة التعبير الحر الموجعة، على حساب استقرارها الأسري وموقعها الوظيفي ومكانتها الاجتماعية.

وأبرز من كتب في الجانب الخصوصي النّسائي الكاتبة (فضيلة الفاروق) التي تلح أن تتكلم المرأة بلسانها وحدها بدون واسطة، فنلتمس في رواياتها " مزاح مراهقة" ، "تاء الخجل"، اكتشاف الشهوة"، " أقاليم الخوف" ، التطلع إلى الخلاص والانعتاق والانطلاق والتحرر من الكتب وقيود الماضي، فلم تترك الكاتبة قضية من القضايا التي تمس المرأة إلا وتطرقت لها فكان الحب، والاغتصاب والعذرية والزواج، وإنجاب البنات، والتعليم، والحجاب والطلاق، والعلاقات الزوجية، وتهميش المرأة موضوعاً للكتابة تمكنت عبره من مساءلة العلوم الفنية والحفر في مكنونات الذات الأنثوية، فاضحة لكل صور زيف المجتمع.

الحقيقة أن تغيير وضعية المرأة من واقعها المزري المسكوت عنه، إلى واقع إنساني أفضل، مرهون بخرق ثقافة الجمود وخلخلة إيديولوجية السيطرة والاستعباد، وإحلال ثقافة التغيير والتطوير الشاملة محلها. فالمرأة ما انفكت تشكل (موضوعا سجالياً في مستوى التغيير الاجتماعي لأي مجتمع، على اعتبار أن تغيير الصور الثابتة حولها من شأنه أن يحرر الذاكرة، ويهيئ التفكير لتقبل واستقبال صور غير مألوفة)[19] ، لاسيما لدى الرجل. إذ لابد من تغيير وعيه بقضية المرأة، واستضاءته بالمواقف التحررية، ليكف عن محاصرتها، وليستبعد تبرمه بنضالها من أجل قضيتها، على أساس اعتبار قضيتها قضيته هو أيضا، بل إنها قضية الجميع، لذلك فقد كانت الكتابة عند (فضيلة الفاروق) هي استجابة لنداء الحضور الذي تمارسه الذات الأنثوية المتمردة على صاحبتها في مواجهة الرجل سبب أزمتها إنها تخوض مشروع الثورة والتمرد من أجل التغيير، كما تعكس في أعمالها توق الجسد الأنثوي إلى اللذة والجنس، وتقدم لنا الروائية (ربيعة مراح) من خلال روايتها "

الشاد والنغم الشارد"(الأنثى) وهي تبحث عن مشاعر الحب والاستقرار والتخلص من المعاناة، تسير ببطلتها عبر أحداث متسلسلة محبكة وبحميمية في السرد يتوق القارئ لمعرفة نهايتها، ترى في الطرف الآخر الأمن والأمان وهدوء النفس كما في رواية " لن نبيع العمر" للروائية (زهرة مبارك) ورواية "الهجّالة" (لفتيحة أحمد بورونة) و" أصابع الاتهام" (لجميلة زنير)كلها نهايات لا تحقق المرأة فيها أحلامها[20] فإن تحرّر المرأة من منظومات العلائق الاستبدادية، هو من تحرر الإنسان والوطن العربيين، لكون المجتمع العربي لن يتحرر تحرراً تاماً، ولن يتقدم إلى الأمام، ما لم تتم معالجة قضية المرأة بفعل جذري .

من هنا، يفترض سؤال التغيير نفسه على المرأة والرجل معاً، ويحملهما مسؤولية التضحية من أجل استبدال واقع ظالم ضحيته الرجل والمرأة كلاهما، بمجتمع ديمقراطي، وواقع آخر مفترض قوامه الحرية والعدل والمساواة، من شأنه أن يساعد على تغير المجتمع وتطور الأمة نحو الأفضل. وإن أي تعويم للقضية في صراعات هامشية، خصوصاً تلك المفتعلة بين الرجل والمرأة، لمن شأنه أن يسيء بطريقة أو أخرى إليهما معاً، ويؤخر تحقيق الحلول الناجعة لقضية المرأة تخصيصا.

ويعدّ الرجل داخل المحكي الروائي هو سبب محنة المرأة فيها بسلطته الاجتماعية وقسوته وخيانته، فقُدم بصورة سلبية مبتورة القيم والإنسانية تجاه المرأة، وكأنه هكذا دائماً الصورة ذاتها تتواتر وإن تعددت مضامين الروايات.

. إن صورة المرأة المعالجة في قصص الكاتبات والروائيات، قد تغيرت من وضع المرأة الذليلة المهمشة والمستسلمة لقدرها العاثر، إلى صورة بديلة تقوى فيها المرأة على المواجهة ، بسبب ما تحصلت عليه من مكاسب، وبما تسلحت به من وعي، خصوصاً عندما استقلت بشخصيتها تعلماً وعملاً.

هكذا فبعد أن امتلكت المرأة أخيراً أسرار الكتابة من الرجل واقتحمت عالمه ولغته وباتت (تؤلف وتكتب وتبادل الرجل لغة بلغة)[21] ، كما تؤكد سقوطها في فخ عبودة اللذة، فانتصارها لم يدم طويلاً لقد انقلب الوعي بالكتابة وسلطتها ليوازي حب الآخر جسدا ملتبساً باللذة، إذ عاد وخرج من الكتابة التي أنسبها إلى الواقع الذي يسيطر عليه، والتبست بهاجس مطاردته والبحث عنه في المقاهي والشوارع والجسور وعلى صفحات الجرائد، لم يعد بإمكانها الاستغناء عنه (ذلك الكائن الحبري الذي خلقته منذ عدة سنوات، ثم نسيته داخل كتاب ألقيت به إلى جوف مطبعة،

كما يلقي بجثة إلى البحر، بعد أن أثقلها بالصخور حتى لا تعود إلى السطح ولكنه عاد)[22] ، ليسكن كيانها شهوة، بحيث لا يمكنها الاستغناء عنه.

كما وأن الروائية (أحلام مستغانمي) بكتاباتها المثيرة تجعل من نفسها والمرأة عموما محور الكتابة ، تتعالى كلماتها فوق مستوى الإحساس العام لتجعل من شعورها روابط عاطفية تفيض من نبع حنان الأنثى ، لتحقق بذلك حريتها التي لطالما كانت مفقودة بين تعابير الأنا الفوقية.

. وفي الأخير يمكننا القول إن الكاتبات ، هن جزء مباشر من القضية، إلى حد يمكن القول بأن التجربة المعالجة في بعض القصص هي تجارب ذاتية ، ومن هنا تكون حماسهن وجرأتهن على ارتياد حقل الكتابة بصورة الارتجالية في الجرأة.

. لعل مواجهة الرجل الذي يشغل موقع الخصم في أغلب القصص، هي بمثابة ضرب لسلطة الأب في المجتمع الأبيسي، وكذا لباقي الطابوهات المقيدة لحرية المرأة.

. إن نثر البدائل في طيات القصص، هو تحريض صريح على خلق المناخ الصحي لعيش الرجل والمرأة في مجتمع إنساني سليم.

وإن كل هذا وغيره، ليؤكد حقيقة أن صورة المرأة العربية، قد تغيرت كثيرا فعلا، سواء على المستوى الواقعي أم التخييلي.

خاتمة

وفي الأخير يمكننا القول أن كتابات المرأة في أغلبها موسومة بالاجتماعية والإنسانية والتفاعلية، ما لم تخرج عن الوعي العميق بالدور، وأن التحول الذي يتجلى في الخطاب النسائي إنما هو تشكيل لواقع جديد تمثل فيه المرأة نفسها وتثبت تواجدها من دون غيرها، وهو ما تلاه القرن العشرين وتأثيراته بجلب الفضاء العصري المتسم بمظاهر الحداثة والتغير، وهو محاولة كبرى من أجل إزالة الهيمنة الذكورية التي خيمت لسنين تفرض تواجدها بعقلية الجنس الأول والجنس الثاني.

هوامش:

[1]- بدران بن لحسن: العولمة ومنعطف التجديد ، مجلة الإحياء، العدد 21 ، باتنة، جامعة الحاج لخضر، 2007 م ، ص 356 .

[2]-ابن دواد عبد النور : المدخل الفلسفي للحداثة تحليلية نظام تمظهر العقل العربي قراءة في نصوص مشال فوكو، الجزائر، دار الاختلاف، 2009 م ، ص 21 .

[3] - فارح مسرحي: الحداثة في فكر محمد أركون مقاربة أولية، الدار العربية ودار الاختلاف، الجزائر، 2007 م ص 19.

[4] -المرجع نفسه : ص 19

[5]مستقبل الأمة العربية، التحديات والخيارات، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 1988 م ، ص 45 .

[6]ينظر : أنيسة الأمين، امرأة الحداثة ، ضمن كتاب قضايا وشهادات كتاب ثقافي دوري، مؤسسة عيبال للدراسات النشر، العدد 2 صيف 1990 م ، ص 109 .

[7]محمد السويدي: مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري، تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغيير في المجتمع الجزائري المعاصر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1990،ص 97 .

[8]أنيسة الأمين : امرأة الحداثة . ص 111 .

[9]المرجع نفسه: ص 112 .

[10]عباس مكي :المرأة وأزمة المجتمع العربي، المقالة الافتتاحية لمجلة الفكر العربي، العدد 17 / 18 المخصص لقضايا المرأة والمرأة العربية ، 1980 .

[11]محمد نور الدين أقابة : الهوية والاختلاف في المرأة والكتابة والهامش، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1988 م، ص 32

[12]ينظر :خليل الموسى: الكتابة (كتابة الاختلاف ، كتابة المرأة) مجلة الموقف الأدبي ،العدد 500 .كانون الأول 2012 م ص 17

[13]خليل الموسى : المرجع نفسه، ص 18 .

[14]محمد نور الدين أقابة : الهوية والاختلاف، ص 32

[15]أحمد دوغان: الصوت النسائي في الأدب الجزائري، مجلة آمال، ع 4 وزارة الثقافة . الجزائر ، ص 08 .

[16]سعاد طويل : الرواية النسائية الجزائرية ، بنياتها السردية وموضوعاتها ، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم في الأدب واللغة العربية ، إشراف الأستاذة صالح مفقودة، جامعة محمد خيضر بسكرة، السنة الجامعية 2013 م / 2014 م . ص 31 .

[17]المرجع نفسه: ص 31.

[18]أحمد دوغان : الصوت النسائي في الأدب الجزائري المعاصر، مجلة آمال العدد4 وزارة الثقافة . الجزائر، ص 26

[19]زهور كرام: خطاب ربات الخدور: مقاربة في القول النسائي العربي والمغربي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط.1/2009، ص.8

[20]سعاد طويل: المرجع نفسه، ص 32.

[21]عبد الله محمد الغذامي: المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب، بيروت لبنان ، ط 3 / 2006 ، ص 131 .

[22]أحلام مستغانمي: فوضى الحواس، دار الآداب للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان، ط 16 / 2007 م ، ص 274.